جوهر الدين وفكرة الإنسان عن اللّه

للمعلم: برمهنسا يوغانندا
الترجمة: محمود مسعود

صحيح أن الله غير متناهٍ في جوهره ولا حد لمظاهره. وصحيح أن العقل البشري غير قادر على إظهار ماهية الله والكشف عن طبيعته. وصحيح أيضا أن عقل الإنسان بالرغم من شوائبه ومعوقاته لا يطيق أن يظل قانعا راضيا بما هو محدود ومتناه. فهو يمتلك دافعا طبيعيا كي يعلل كل ما هو بشري ومتناه على ضوء ما هو سماوي وغير متناه. إنه يدرك الوجود الأسمى في ذاته لكنه يعجز عن الإفصاح عنه، لأن ذلك الوجود يعصى على الظهور بجلاء ووضوح في ظروف محدودة ومقيدة.

إن فكرتنا عن الله تنحصر في تسليمنا بأنه عُلوي يفوق مدارك البشر، حاضر في كل مكان، غير محدود، عليم بكل شيء، إلى ما هنالك. ولكن هناك تباينات عديدة في هذه الفكرة. فالبعض يدعو الله إلها شخصيا في حين يعتبره آخرون مجرّدا ولا شخصي. أما النقطة المحورية والجوهرية فهي الآتي:

مهما كانت فكرتنا عن الله، فإن لم تؤثر تلك الفكرة تأثيرا مباشرا على سلوكنا اليومي، وإن لم تلهم حياتنا اليومية في كل ما نفعله، وإن لم يتم قبولها على أنها ضرورة عالمية، فمن البديهي أنها فكرة عقيمة لا نفع لها.

وإن لم ننظر إلى الله بكيفية لا يمكننا معها الاستغناء عنه في تعاملنا مع الناس أو كسبنا المال أو قراءة الكتب أو اجتياز الامتحان أو تحقيق حاجة ما أو القيام بأكبر أو أصغر الواجبات، فمن الواضح أننا لم نشعر بأية علاقة بين الحياة والله.

قد يكون الله غير متناه، كلي الحضور، كلي المعرفة، شخصي ورحيم، لكن هذه الآراء وحدها لا تمتلك الدافع الكافي لحفزنا كي نبذل المجهود في التعرف عليه. وقد يبدو للبعض أنه بالإمكان الاستغناء عنه. أجل، قد يكون الله كلي الحضور وغير متناه..إلخ، ولكن تلك الآراء النظرية لا فائدة مباشرة وعملية لها بالنسبة لحياتنا المليئة بالهموم والمشاغل.

إننا نلجأ إلى تلك التصورات الذهنية فقط عندما نحاول إرضاء شوقنا وحنيننا إلى شيء ما بعيد المنال، أو تبرير كتاباتنا الفلسفية والخيالية أو الأدبية أو حتى حواراتنا المثالية. ولكن عندما نعجز مع كل معرفتنا المتفاخرة عن تفسير بعض الظواهر الكونية الأكثر حدوثا وشيوعا؛ أو عندما تنهكنا الأيام وتوهننا صروف الدهر، عندئذ نبتهل للإله المحب الرحيم، مطبقين بذلك القول الشرقي:

صلى المصلي لأمر كان يطلبهُ فلما قضى الأمر لا صلى ولا صاما

تلك الآراء النظرية عن الله هي بمثابة صمامات الأمان لأفكارنا البشرية القاصرة. فهي تصوره لنا لكنها لا تحفزنا كي نبحث عنه لأنها لا تمتلك قوة الدفع. فنحن عندما ندعو الله لا متناهيا وحاضرا في كل مكان ورحيما وعليما بكل شيء، لا نكون بالضرورة جادين في البحث عنه ومحاولة التعرف عليه. هذه الأفكار ترضي العقل فقط، لكنها لا تشبع حنين النفس. وإن كانت تلك الأفكار قريبة من قلوبنا فقد تساعد على توسيع مداركنا بعض الشيء لكنها لا تمنحنا الوعي الإلهي. لذلك فهي غير وثيقة الصلة بالذي تشير إليه. إنها ترفع الله وتفصله عن البشر وشؤونهم اليومية.

هذه الآراء يخالطها الاستهجان والاستغراب عندما نكون في الشارع، في المصنع، خلف البسطة، أو في المكتب. ليس لأننا غير راغبين في الله والدين، ولكن بسبب عدم امتلاكنا للفكرة الصحيحة عنهما: الفكرة التي بالإمكان جعلها جزءاً لا يتجزأ من حياتنا اليومية. ففكرتنا عن الله يجب أن تؤثر فينا – يومياً- تأثيرا مباشراً، بل وتؤثر في كل لحظة من حياتنا بحيث نستمد منها ما نحتاجه من الهداية والإلهام. ومجرد التفكير بالله يجب أن يستحثنا كي نبحث عنه في خضم ودوامة حياتنا اليومية. وهذا ما قصدناه من فكرتنا العملية والمحفزة عن الله. لقد آن الأوان كي نُخرج الدين والله من مجال الاعتقاد إلى الحياة اليومية المعاشة. فإن لم نؤكد على ضرورة الله والدين في كل ناحية من نواحي حياتنا، وكل لحظة من وجودنا، فإن الله والدين يتم إقصاؤهما عن حياتنا اليومية ويصبحا مسألة يوم واحد في الأسبوع ليس أكثر.

لقد ظهرت ديانات مختلفة في أزمان مختلفة، رافقتها تناحرات بغيضة وحروب رهيبة وتنكيل وإراقة دماء . لقد وقف الدين ضد الآخر وحاربت الملل بعضها. ولا نقول يوجد أديان مختلفة وحسب، بل توجد طوائف وفرق ومذاهب وشيع ونحل مختلفة في نفس الدين الواحد. ولكن السؤال هو: ما دام يوجد إله واحد فلماذا توجد أديان عديدة؟

قد يقال جَدَلاً أن مراحل خاصة بتطور العقل البشري ونمو فهم بعض الأمم هي السبب في تعدد الديانات كالهندوسية والإسلام والبوذية للآسيويين والمسيحية للغربيين، بحسب المواقع الجغرافية وبعض العوامل الطارئة الأخرى.

وإذا فهمنا من الدين الممارسات والاعتقادات الخاصة والعقائد والعادات والتقاليد وحسب، لكان من الجائز وجود ديانات متعددة. ولكن إن كانت الفكرة الأساسية للدين هي وعي الله أو معرفة الله باطناً وظاهراً، وكانت الفكرة الثانوية وجود مجموعة من المذاهب والاعتقادات والآراء، فمن الواضح أنه يوجد دين واحد في العالم لأنه لا وجود سوى لإله واحد لا ثانٍ له.

فالعادات المختلفة وأشكال العبادات والطقوس والممارسات والأعراف التقليدية يمكن النظر إليها على أنها الأساس لتشكيل الطوائف والملل المختلفة ضمن الدين الواحد. فإن فهمنا الدين على هذا الأساس عندها فقط يمكننا أن ندرك عالميته، لأنه ليس من السهل لنا أن نعمم عرفاً من الأعراف أو عادة من العادات أو تقليداً من التقاليد، ولكن الذي يمكن تعميمه هو العنصر المشترك لكافة الأديان. وبإمكاننا أن نطلب من كل الناس الأخذ بهذا الرأي. عندئذ سنتمكن من القول بأن الدين ليس ضروريا وحسب بل ذو طابع عالمي أيضا، وأن الجميع بإمكانهم اتّباع الجوهر الروحي للدين الذي هو لله. وذلك الجوهر هو واحد في كافة الأديان السماوية.

قد تتشعب السبل بعض الشيء في بداية الطريق، ولكن ليس من المنطق أن نقول بوجود دينين اثنين ما دام لا يوجد سوى رب واحد للبشر. قد تكون هناك طائفتان أو ملّتان ولكن يوجد دين توحيدي واحد لا غير. وما نسميها بديانات مختلفة يجب تعريفها على أنها ملل وطوائف ضمن ذلك الدين العالمي. وما ندعوها طوائف وملاً يجب فهمها على أنها فروع من العبادات والمعتقدات. فان عرفنا لمرة واحدة معنى كلمة الدين التي سيتم بحثها بتفصيل أكبر فيما بعد لكنا أكثر تحفظاً في استعمالها.

إن فهم البشرية القاصر هو السبب من تجاهل الناس للعنصر العالمي المشترك في ما تسمى بأديان العالم المختلفة، وهذا التجاهل كان ولم يزل علة الكثير من الشرور والبلايا.

هذا الفصل يعطي التعريف السيكولوجي للدين، ولكن ليس تعريفاً موضوعيا مؤسساً على العقائد التقليدية والآراء المذهبية. وبعبارة أخرى إنه يحاول ربط مسألة الدين بكياننا الباطني وبكل توجهاتنا في الحياة، وليس مجرد مراعاة بعض الأحكام والفروض فقط.

ينبغي أولاً تعريف جوهر الدين، وعندها سنتمكن من معرفة ما إذا كان يتحتم علينا اتباع الدين. لا عمل حيث لا ضرورة. فكل عمل نقوم به ننجزه لغاية مرتبطة بذلك العمل. والناس يعملون بطرق شتى لإنجاز غايات مختلفة. هناك رغبات ومطامح مختلفة تقرر وتوجّه أعمال الإنسان في العالم. ولكن هل من غاية مشتركة لأعمال كل البشر في هذه الحياة؟ وهل من ضرورة مشتركة تحفزنا للقيام بكل ما نقوم به؟ إن تحليلا بسيطا لبواعث

وغايات الإنسان في العالم يبيّن لنا – بالرغم من وجود آلاف الغايات المباشرة وغير المباشرة فيما يخص العمل الذي يقوم به أو المهنة التي يمارسها – أن الغاية الوحيدة التي تأتي بعدها كل الغايات الأخرى، هي تحاشي الألم وبلوغ الغبطة الدائمة. وسواء استطعنا أن نتفادى الألم والحاجة على الدوام وأن نحصل على الغبطة فتلك مسألة أخرى. إنما حقيقة الأمر هي أننا في كل ما نقوم به دون استثناء، نحاول أن نتخلص من الألم ونحصل على اللذة.

لماذا يعمل الشخص كمبتدئ تحت التدريب؟

لأنه يرغب في أن يصبح خبيرا في مجال عمله.

ولماذا يرغب بمزاولة ذلك العمل؟

لأنه يستطيع تحصيل المال بتلك الوسيلة.

ولماذا ينبغي له تحصيل المال؟

لأنه يتمكن بذلك من تحقيق احتياجاته الشخصية والعائلية.

وما الغاية من تحقيق تلك الرغبات؟

لأنه بذلك يمكنه التخلص من الألم وإحراز السعادة.

هناك فرق بين السعادة والغبطة. كلنا طبعاً نسعى للحصول على الغبطة ولكن بسبب خطأ كبير نتصور أن اللذة والسعادة هما تلك الغبطة. أما كيف يحدث ذلك، فهذا ما سنتطرق إليه.

الغاية القصوى هي امتلاك الغبطة التي نحسها في كياننا، ولكن السعادة أو اللذة قد حلاً محلها بسبب سوء التقدير، فتصوّرنا أن اللذة هي هدفنا النهائي.

لذلك نرى أن تحقيق رغبة ما: التخلص من ألم جسدي أو نفساني، مهما كان طفيفاً أو عنيفاً، وبلوغ الغبطة هي بالفعل غايتنا النهائية. ولا ينبغي لنا أن نتساءل أكثر من ذلك عن السبب من الرغبة في تحقيق الغبطة لأنه ليس ثمة جواب لهذا السؤال. تلك هي غايتنا القصوى في كل ما نقوم به من أعمال أو من تحصيل المال أو مخالطة الأصحاب أو تأليف الروايات أو التبحر في العلوم أو سيادة الممالك أو التبرع بالملايين أو اكتشاف القارات أو الطموح إلى الشهرة والمجد أو مد يد العون إلى المعوزين أو محبة الإنسانية أو معانقة الموت. وسوف يتضح أن البحث عن الله يصبح حقيقة واقعية بالنسبة لنا عند التدقيق المتواصل والتفكر بغايتنا الحقيقية. قد تزيد الخطوات على الملايين، وتربو الأعمال والدوافع على الآلاف، لكن الهدف النهائي هو واحد على الدوام: بلوغ الغبطة الدائمة حتى لو تم ذلك عن طريق سلسلة طويلة من المحاولات والأعمال.

الإنسان يرغب عادة في مواصلة السير وتتبع تلك السلسلة حتى بلوغ الحلقة الأخيرة منها. قد يقترف الانتحار كي يضع نهاية لألم يمضه ومعاناة تؤرقه، أو قد يرتكب جريمة الإغتيال للتخلص من حاجة أو ألم ما، أو أيٍ من المنغصات ظناً منه أنه بذلك سيحصل

على الرضاء الحقيقي أو الراحة والانفراج، متوهماً أن ما يفعله سيمنحه الغبطة. وهكذا نرى أن ذلك الإنسان يعمل – ولو بأسلوب مغلوط – من أجل بلوغ غايته النهائية.

قد يقول قائل: "إنني لا أكترث باللذة أو السعادة فأنا أحيا من أجل إنجاز أمر ما، من أجل تحقيق النجاح." وقد يقول آخر: "أريد القيام بأعمال خيرية في العالم، ولا أهتم لألم أو لسواه." ولكن لو تسنى لك معرفة ما يدور في نفسيهما، لوجدت أنهما يعملان من أجل السعادة. فهل يريد الشخص الأول نجاحاً خالياً من اللذة أو السعادة؟ وهل يرغب الثاني بمساعدة الآخرين وخدمة الإنسانية دون أن يكون له نصيب من السعادة جرّاء عمله هذا؟ طبعاً لا. صحيح أنهما قد لا يأبهان لشتى الآلام الجسدية والمكابدات النفسية بفعل الظروف المعاكسة التي تعترض سبيل النجاح أو مساعدة الغير. ولكن بما أن الأول يجد لذة كبيرة في النجاح، ويتذوق الثاني متعة عظيمة من إسداء المعونة للآخرين، فلذلك يطلب الأول النجاح ويسعى الآخر لمساعدة الناس بالرغم من كل المصاعب والعراقيل.

إن أكثر البواعث إيثاراً وغيرية، وإن أشرف المقاصد الإنسانية كلها بزغت من الحافز الأساسي لنفس معذبة تطلب الاقتراب من الغبطة. لكنها ليست سعادة الوصولي الضيق الأفق، بل سعادة ذوي الصدور الرحبة الباحثة عن تلك "الروح النقية" الموجودة بنا جميعا. هذه السعادة هي غبطة غير نقية تماما. لذلك عندما تكون الغبطة النقية الدافع الشخصي للأعمال الغيرية والخيرية فإن صاحب الإيثار ينأى بنفسه عن الأنانية ومتطلبات الذات الصغيرة المحدودة، لأن الإنسان لا يمكنه امتلاك الغبطة الصافية النقية ما لم يمتلك رحابة الصدر وسعة الأفق وما لم يتمنى السعادة للآخرين تماما كما يتمناها ويطلبها لنفسه. هذا قانون كوني ثابت لا يتغير.

فمن هنا يتضح أن الدين يكمن بالضرورة في التخلص الدائم من الألم وفي تحقيق الغبطة أو الله.

والأعمال التي يجب القيام بها من أجل التخلص الدائم من الألم وتحقيق الغبطة أو الله تدعى أعمالاً دينية. فإن فهمنا الدين على هذا الأساس اتضحت لنا طبيعته العالمية، لأنه ما من أحد ينكر رغبته في الابتعاد الدائم عن الألم وبلوغ الغبطة الدائمة. وهذه الفكرة يجب أن تلقى قبولاً عالمياً لأنه لا يمكن لأحد أن ينكر صحتها أو يقوى على دحضها، فكيان الإنسان بأسره مرتبط بها.

الكل يرغب في الحياة لأن الناس يحبون الدين. وحتى إن انتحر الإنسان فلأنه يحب الدين أيضا. كيف ذلك؟ لأنه بفعلته تلك يظن أنه سيبلغ حالة أسعد من التي كان يحياها. ومهما يكن من أمر فالغاية سليمة لأنها هي نفس الغاية التي ينشدها الجميع كونهم يرغبون في إحراز السعادة أو الغبطة. ولكن الوسيلة غير ناجعة، والإنسان في هذه الحالة لا يعرف – بسبب جهله – الطريق الذي يقوده إلى منابع الغبطة التي هي غاية البشرية جمعاء.

لذلك نجد أن كل إنسان في العالم هو متديّن بقدر محاولته التخلص من الألم والحصول على الغبطة. الكل يعمل من أجل نفس الغاية، ولكن إذا تأملنا ودققنا النظر في الأمر لوجدنا أن المتدينين الفعليين في العالم هم بالفعل قلائل جداً. فهناك حفنة من البشر ممن يعرفون الوسيلة الأنجع للتخلص الدائم من العوز والألم المادي والعقلي أو الروحي وتحصيل الغبطة الحقيقية.

المريد الصادق لا يمكنه أن يتمسك بفكرة ضيقة متزمتة عن الدين، مع أن لتلك الفكرة علاقة ولو غير وثيقة بالفكرة التي سنوضحها.

لو قررتَ الإمتناع عن الذهاب إلى بيوت العبادة وتوقفت عن ممارسة الشعائر والطقوس التي تقام بها فإن من يعتبرون أنفسهم من ذوي الرأي سيهزّون رؤوسهم ويصرحون بأنك مارق وناقص لأنك لم تتواجد مؤخراً في الأماكن المقدسة، حتى ولو كنت تسلك بتديّن واستقامة في حياتك اليومية وتعيش حياة هادئة ومتزنة، وتفكر أفكارا طيبة وتساعد الناس ما استطعت إلى ذلك سبيلا، وتحاول انتزاع السعادة من الظروف الصعبة القاسية، بل حتى لو كنت تحاول صادقا أن تحيا حياة صالحة وبارة من وجهة نظر الدين وأمام الله.

ومع أنه لا يمكن بالطبع تبرير الابتعاد المتعمد الدائم عن أماكن العبادة، لا يمكن بالمثل النظر إلى من يحضر أمكنة العبادة على أنه أكثر تديناً من سواه، إن كان ذلك "المتديّن" لا يراعي في نفس الوقت المبادئ التي يأمر بها الدين ويقرها الضمير، أي تلك التي تفضي إلى الغبطة الدائمة.

فالدين لا ينحصر في أمكنة العبادة ولا يتقيد بالطقوس التي تقام بها. فما دمت تشعر بالخشوع في قرارة نفسك وتعيش حياتك اليومية محاولا الإحساس بالغبطة النقية فإنك متدين خارج أماكن العبادة كما لو كنت داخلها.

هذا بالطبع لا ينبغي أن يُنظر إليه على أنه تحريض على ترك أماكن العبادة التي كثيرا ما تكون عوناً أكيداً من نواح شتى. المقصود هو وجوب بذل المجهود الروحي خارج أماكن وأوقات العبادة من أجل تذوق السعادة الروحية كما في داخلها. وهذا المجهود هو أفضل من الجلوس على مقاعد العبادة والإصغاء للخطب والمواعظ باستكانة سلبية وأفكار شاردة؛ ليس لأن الإصغاء غير حسن، ففوائده كثيرة ولا يمكن إنكارها.

الدين يربطنا بمبادئ ونواميس ووصايا إلهية. ولماذا؟ ليصنع منا عبيداً أرقاء ويسلبنا حقنا في حرية التفكير وحرية الاختيار؟ غير معقول! فكما أن الدين يجب أن يمتلك التحفيز الكافي، هكذا يجب أن تكون غايته من تقييدنا طيّبة ونبيلة. وما هي تلك الغاية؟ الجواب المنطقي الوحيد هو أن الدين يربطنا بمبادئ سماوية ونواميس ووصايا إلهية كي لا نسقط ونتخبط في أوحال ومستنقعات الألم الجسدي والعقلي والروحي.

الآلام الجسدية والعقلية نعرفها جيدا، ولكن ما هو الألم الروحي؟ إنه الجهل بطبيعة الروح، وهو موجود في كل البشر المقيَدين وغير المستنيرين. هذا الألم الروحي غالبا ما يكون مستترا ونادراً ما يبدو للعيان.

أليس تعريف الدين الذي ذكرناه يشتمل على المعنى الجوهري للدين؟ لقد قلنا أن الدين يشتمل على التلافي الدائم للآلام والشقاء والمتاعب. غير أن الدين لا يمكن أن ينحصر في التخلص من شيء ما وحسب، كالألم مثلا، بل يجب أن يكمن أيضاً في التمسك بشيء آخر. فهو لا يمكن أن يكون سلبياً بالمرة، بل يجب أن يكون إيجابيا أيضا. إذ كيف يمكننا التخلص على الدوام من الألم ما لم نتمسك بنقيضه: الغبطة؟ ومع أن الغبطة هي ليست عكس الألم بالمعنى الصحيح، لكنها على أي حال وعيٌ إيجابي يمكننا التمسك به كي ننجو من الألم. طبعاً لا يمكننا أن نبقى للأبد معلقين في فضاء من الشعور الحيادي، لا هو بالألم ولا بنقيضه. أكرر القول أن الدين لا يشتمل على تحاشي الآلام والمتاعب وحسب، بل على بلوغ الغبطة أو الله. وسوف نشرح فيما بعد الشبه بين طبيعة الغبطة والطبيعة الالهية.

الدين هو مسألة أسس وأركان. فإن كان دافعنا الأساسي هو البحث عن الغبطة أو السعادة، وإن لم يكن من عمل واحد ننجزه أو لحظة واحدة نحياها دون أن يحددها ذلك الباعث النهائي، أفلا يحق لنا إذاً أن نستنتج أن هذا الشوق هو أعمق ما يسكن طبيعة الإنسان؟ وما هو الدين إن لم يكن متصلاً بأعمق مشاعر الشوق والحنين في وجدان الإنسان؟ ولكي يكون الدين ذا قيمة حيوية ينبغي أن يؤسس ذاته على حب الحياة والأشواق.

إن أجاب أحدهم بالقول أن هناك غرائز بشرية أخرى من اجتماعية وحب بقاء..الخ، بجانب التشوق إلى السعادة، وسأل لماذا لا نفسر الدين أيضاً على ضوء تلك الغرائز أيضا، فنجيبه أن تلك الغرائز هي إما تابعة للرغبة في طلب السعادة أو أنها متصلة بها اتصالا وثيقا بحيث لا تؤثر على جوهر تفسيرنا للدين.

لنعد قليلا إلى الجدل الأول. إن ما هو عالمي وأكثر ضرورة للإنسان هو دين له. وإن لم يكن الشيء الذي هو أكثر ضرورة وعالمية للإنسان ديناً له فما عسى أن يكون؟ طبعاً لا يمكن لأي شيء زائل أن يكون دينه. فلو حاولنا أن نجعل المال الاعتبار الأوحد الذي يستوجب اهتمامنا في الحياة لأصبح تحصيله ديننا وديدننا أي لأصبح الدينار أو الدولار ربنا. (وفي هذا يقول النبي الكريم: بئس عبد الدرهم تعس عبد الدينار).

وبالرغم من ذلك فإن الدافع الأقوى في الحياة هو دين لنا مهما كانت طبيعته.

لنضع جانبا التفسيرات العقائدية، لأن الأعمال أو طبائعها وليس اعتناق المذاهب العقلانية أو مراعاة الطقوس والشعائر هو ما يقرر ديننا، سواء صرّحنا به أو لم نفعل. ولسنا

بحاجة لرجل الدين كي يسمي لنا ديننا، لأن أفعالنا وتصرفاتنا تتحدث عنه بصدق وفصاحة.

ما ينبغي تذكّره هو أن الشيء الأكثر أهمية بالنسبة لنا، الشيء الذي يستقطب اهتمامنا أكثر من أي شيء آخر هو بالضرورة الحافز الرئيسي في حياتنا، وهو بالتالي ديننا. فإن اعتبرنا المال والأعمال أو امتلاك ضرورات أو كماليات الحياة كلَ شيء في حياتنا، يبقى هناك دافع أعمق. إننا نطلب هذه الأشياء كي نتخلص من الألم ونحصل على السعادة. وهذا الدافع الأساسي هو دين البشرية الحقيقي. أما الدوافع الأخرى فتشكل معتقدات وهمية لا أساس لها أصلا. ولأن الدين لا ينظر إليه من منظار عالمي، يتم إقصاؤه بعيدا عن دائرة الحدث اليومي، أو يصبح موضة عصرية للعديد من البشر.

لهذا نرى أن الدين العالمي (أو الدين الذي يتم فهمه من وجهة نظر عالمية) هو ضروري عمليا وبراغماتيا، وضرورته ليست مصطنعة ولا مفروضة فرضا. ومع أن تلك الضرورة تبدو واضحة للعقل لكن لسوء الحظ لا نكون على صلة حيوية دائمة معها. ولو كنا على تلك الصلة لتلاشى الألم منذ أمد بعيد من هذا العالم، لأن ما يعتبره الإنسان ضروريا يبحث عنه بشتى الطرق، مهما كان الثمن باهظا والتضحيات جسيمة. فلو ظن الإنسان أن كسب المال هو أمر حتمي لإعالة أسرته فلن يتقاعس عن اقتحام المخاطر سعياً في تحصيله. ومن المؤسف أننا لا ننظر إلى الدين بنفس الأهمية، ونعتبره بدلا من ذلك شيئا ثانويا لا جزءا متمما لحياة الإنسان.

ومن المؤسف أيضا أن الإنسان قد ضل سبيله وقلل من أهمية الدين الفعلي مع أن غاية الإنسان هي دينية بالضرورة بقدر ما يسعى جاهدا للتخلص من الحاجة وتحصيل السعادة. ما هو سبب ذلك؟ ولماذا لا ندرك الضرورة الأساسية بدل التركيز على الأمور الأقل أهمية؟ والجواب هو: تعلقاتنا الحسية وطُرق المجتمع المغلوطة.

الناس الذين نخالطهم ونتفاعل معهم يلعبون دورا كبيرا في تحديد الضرورة التي نحس بها نحو أشياء مختلفة. خذ مثلا تأثير الأشخاص والبيئات. إن رغبت في تخليق شخص غربي بأخلاق الآسيويين ضعه بين الشرقيين؛ أو إن أردت تطبيع شخص شرقي بطباع الغربيين ضعه بين الأوروبيين، ولاحظ النتائج المحسوبة والمحسومة سلفاً! فالغربي سيتعلم كيف يحب عادات وتقاليد ولباس ونمط معيشة وأفكار ونظرات الشرقيين، والشرقي سيميل إلى عادات وتقاليد الغربيين..إلخ. وهكذا فإن معايير الحقيقة ستبدو مختلفة لكليهما.

ومع ذلك فإن معظم الناس يتفقون على أمر واحد هو أن حياتهم الدنيوية تستحق الكفاح والعناء بكل ما فيها من مباهج ومنغصات ومن هموم وملذات. لكن الذين يضعون الدين العالمي نصب أعيننا ويذكروننا بضرورته هم نادرون جدا، أو غير موجودين بيننا. ولذلك نجد أنفسنا غير مكترثين بتلك الضرورة ولا نوليها الاهتمام الذي تستحقه.

الإنسان نادراً ما يبتعد بنظره ونظراته عن المحيط الذي يعيش فيه، وهذه حقيقة لا يختلف علينا إثنان. فكل ما يقع ضمن دائرة اهتماماته المباشرة يسـوّغه، يقلّده، يقتدي به، ويعتبره نبراسه ومنهج سلوكه. أما ما يخرج عن نطاق وعيه فيضرب عنه صفحا أو يقلل من أهميته. المحامي على سبيل المثال يحترم ويراعي كل ما يتعلق بالقانون والمسائل القضائية، أما الأمور الأخرى فبطبيعة الحال هي أقل أهمية بالنسبة له.

الضرورة العالمية للدين العالمي كثيراً ما تُفهم على أنها ضرورة نظرية، والدين يُعتبر مسألة عقلانية. لو تمكنا من معرفة المُثُل الدينية عن طريق القوى العقلية وحسب لظننا أننا قد بلغنا غايتنا وحققنا مبتغانا دون الحاجة لأن نعرف ماهية تلك المُثُل أو أن نحيا بموجبها.

من واجبنا التمييز بين الضرورة العملية والضرورة النظرية. قد يوافق العديد، بسبب عدم تأملهم وقلة تمعّنهم، أن الدين العالمي هو الضمانة للتخلص من الألم وللإدراك الواعي للغبطة. ولكن ما أقل الذين يعرفون أهمية الدين ويقدّرون ضرورته العملية!

والسلام عليكم